الفصل الأول

الرافعي وأصل اللغة وكمالها

لايمكننا تجلية نظرية الرافعى التى اعتمد عليها فى ابراز أسرار تمدن النظام اللغوى الا اذا قمنا بتوضيح رأى هذا الباحث فى أمرين لهما أثر كبير فيما حققه وهما :

١ ــ أصل اللغة

٢ ــ كمال اللغة

الرافعى وأصل اللغة

يعرف البحث فى أصل اللغة ونشأتها اشتداد الجدل بين نظريتين شغلتا المفكرين ، والنظرية الاولى ترى أن الله عز وجل هو الذى أوحى الى البشر باللغة ، والنظرية الثانية تذهب الى أن اللغة من اصطلاح الناس وتواضعهم • وقد فسر اصطلاح الناس على اللغة بأوجه كثيرة مختلفة (١) •

ويرى الرافعى أن القول بأن اللغة وحى وتوقيف من الله فى الوضع أو فى الموضوع ــ يذهب الى أن الانسان كان محاطا بالسكوت المطلق (٢) ويقرر أن هذا القول انما هو من باب التقوى التاريخية لا أكثر « لان الانسان خلق مستعدا منفردا ، ليصير بعد ذلك عالمامجتمعا، وليجرى فى كماله المقسوم له على سنة الله التى لم تتبدل ، ولن تجد لها تبديلا ، وهذه السنة هى أن المتغير لا يوجد كاملا بل لابد له من نشأة يمر فى أدوارها حتى يتحقق معنى التغير فيه » (٣) •

وأصل هذا المذهب فى رأيه كان مبالغة فى تصــور الاستعداد الانسانى ، لانه الهام لامرية فيه ، أما أهله فهم منقسمون ، فمنهم من يقول بأن الانسان ألهم اللغة نفسها ، ومنهم من يقول بأنه ألهم أصول المواضعة •

---

(١) د : محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى . دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م ص ٥٥

(٢) مصطفى صادق الرافعى تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٦ طبعة دار الاخبار بمصر ١٩١١

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ ــ ٤٩

والحقيقة عند الرافعى أن الانسان ملهم بفطرته أصول الحياة ، وليست اللغة بأكثر من أن تكون بعض أدواتها التى تعين عليها ، وهى فى كل أمة على مقدار ما تبلغ من الحياة الاجتماعية قوة وضعفا ، واذا كان من أصول الحياة الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة ، وهذه من أصولها المواضعة ، فاللغة بنت الاجتماع (١) • ويحاول الباحث أن يفسر الطريق الذى سلكته اللغة ، فيؤكد أن اللغة كلها حكاية للطبيعة ، ويقرر أنه ان كان ثم توقيف أو وحى فانه يكون فى هداية العقول الى أسرار هذه الحكاية (٢) •

وواضح أن هذا يختلف عن وجه نظرية التوقيف ، فالتوقيف أو الوحى الذى يقصده الرافعى بالنسبة الى الحكاية انما يقتضيه أنه لابد « فى استكناه منطق الطبيعة من الذهن الشفاف ، والبصيرة النفاذة ، والالهام الخفى الذى يشبه أن يكون قبسا من النور الالهى ، يضىء بين العقل والقلب ، فلا يقع شعاعه على جهة من الطبيعة الا كشف منها عن معانى الاسرار الآلهية » (٣) •

ويتناول الرافعى الاصوات الحيوانية ، والاصـوات الطبيعية الاخرى ، ويذكر أن اقرب ما يصح فى الظن مما لا يبعد أن يكون الوجه المتقبل — أن الاصوات الحيوانية هى المثال المحتذى فى لغة الانسان لانها محيطة به تتقلب على سمعه كلما سمع ، خصوصا والانســان فى أول اجتماعه مضطر لمغالبة الحيوان (٤) •• وأوائل الالفاظ « التى نطق بها الانسان ، وادارها على معان متنوعة ، هى ألفاظ الاحساس ، وما يصرح به عن الوجدان على الصور البسيطة التى لا يزال اكثرها ميراثا فى الجنس كله على تباين اللغات ، وهى التى تشبه فى تركيبها مقاطع الصوت الحيوانى ، اذ يكثر فيها الحرف الهاوى الذى هو أخف الحروف ، بل هو الصوت الطبيعى فى الحياة ، وهو حرف اللين بأنواعه الالف ، والواو ، والياء •

---

(١) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب جـ ١ ص ٤٦ — ٤٩
(٢) المصدر السابق ص ١٧٤ — ١٧٥ وانظر ص ١٨١
(٣) المصدر السابق ص ١٧٥
(٤) المصدر السابق ص ص ٤٩

وماعدا هذا الحرف فقلما يكون فيها الا أحرف الحلق ، كالعين ، والغين ، والهاء ، والخاء ، لانها قريبة من الحنجرة ، وذلك فى الانسان نحو آه ، وأخ ، وأمثالهما من المقاطع الصوتية التى لا يزال الانسان يعبر بها عن أنواع من الاحساس الى اليوم • ولما أدرك الانسان حقيقة هذا الاستعمال ، وتقلب فيه ، واصطلحت عليه الجماعات منه ، فتق له استعداده للالهام أن يتأمل فى الاصوات الطبيعية الاخرى من قصف الرعد ، وانقضاض الصواعق ، وخرير الماء ، وهزيز الريح ، وحفيف الشجر ، واصطكاك الاجسام ، وما اليها من أصوات هذه اللغة الجامدة ، وهى ربما تبلغ المائة عدا ، فقلدها ، واهتدى بها الى مخارج حروف أخر ى غير التى تتهيأ فى الاصوات الحيوانية ، فداربها لسانه ، وابتدأ يجمع بينها على طريق المحاكاة ، دالا بالصوت على محدثه • • • وهذه الحالة كانت بدء اختراع اللغة ، أى حين كانت حاجات الاجتماع قليلة ، لا تتجاوز الاشارة الى أمهات المعانى الطبيعية بالمقاطع الثنائية ، كأنهمال المطر ، وانفلاق الحجر ، وانكسار الشجر ، وأمثالها ، فلما بدأ الاجتماع يرتقى بنسبة أحوال الانسان يومئذ بدأ الاختراع الحقيقى فى اللغة ، وأمثل ما يظن فى ذلك أن الانسان جعل يقلب المقاطع الثنائية التى عرفها على كل الوجوه التى تحدثها آلات الصوت ، فلما استتم صورها ارتجل المقاطع الثلاثية ، فدارت بها الحروف دورة جديدة ، وفشت ألفاظ أخرى غير التى عهدها ، وكان ذلك ابتداء تسلسل اللغة ، فتواضعوا على اعتبار المقطع الثنائى أصلا فى مدلوله ، كقط مثلا حكاية صوت القطع ، ثم جعلوا كل صورة تتحصل من زيادة حرف عليه فرعا من هذه الدلالة ثم استفاضوا فى الاستعمال على هذا التركيب بالقلب ، والابدال ، وبذلك اهتدى الانسان الى سر الوضع • • » (١)

واهتمام الرافعى بالالفاظ الطبيعية الاولى التى كانت من حاجة الانسان أول عهده بالتعبير كالقطع والكسر والهدم والشق والخرق • • دليل على أن الرجل قد اطمأن الى كون اللغة حكاية للطبيعة ، فهذه الالفاظ عنده هى المعانى الوحشية فى لغة الانسان ، ثم لما انقاد الوضع

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩ — ٥١

بهذه الطريقة لاهل اللغة جعلوها من سنتهم ، وقلبوا عليها الالفاظ الاخرى مما ليس بسبيل من تلك المعانى (١) .

وهو يدعم مذهبه بكل ما استطاع ، ففى ضوء الطريقة التى فسر بها كيفية اهتداء الانسان الى سر الوضع ، واستنادا الى ما حققه علماء طبقات الارض وغيرهم (٢) يذكر أن للغة ثلاثة عصور ، هى عصر التوحش ، وهو الذى خـرجت فيه الاصوات الوجـدانية مصحوبة بالاشارات أولا ، ثم استقلت هذه أولا ، والعصر الحجرى وهو الذى ابتدأ فيه الانسان ينحت من المقاطع الحيوانية والطبيعية لغته الاولى. والعصر البرنزى الذى يدخل فيه شىء من الصناعة ، وهو العصر الذى اهتدى فيه الانسان الى الزيادة على المقاطع الثنائية ، وصنعة الالفاظ على هذا الوجه ، ثم انقادت له اللغة وتماسكت ، وذلك عصرها الحديدى الذى ابتدأ مع التاريخ (٣) .

ويعد الرافعى التغير حقيقة الاصطلاح والمواضعة ، ويرى أن الانسان « لما ارتجل المقاطع الثلاثية دل بها على معان محصورة فى حدود نظامه الاجتماعى ، ثم ضرب فى الكلام بمقدار ما يجد من أمره ، وما يتنبه اليه من حقائق الموجودات ، التى تكاشفه بنفسها ، وما يقتضيه التبسط فى مناحى المجتمعات شيئا شيئا ، وذلك على طريقة تكرار الالفاظ ، وتنويعها للمعانى المختلفة بدلالة القرينة » (٤) .

وعنده أن اللغة فى طورها الصناعى الذى يحققه الارتقـــاء ، والوصول الى أعلى سلم الاجتماع الطبيعى — تجرى عليها أحكام الاشتقاق ، والنحت ، والقلب ، والابدال ، ويفعل الزمن فعله فيها كما يفعل فى تكوين الجماعات ، وبذلك تتنوع وتنشأ منها اللغـات الكثـيرة (٥) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٠
(٢) المصدر نفسه ص ٥١ — ٥٢
(٣) المصدر نفسه ص ٥٢
(٤) المصدر نفسه ص ٥٤
(٥) المصدر نفسه ص ٥٥

واللغة لدى هذا الباحث بنت الاجتماع ، تلقى لدلالة خاصة يعينها الاصطلاح العرفى بين المتكلم والسامع ، وهذا الاصطلاح عمل اجتماعى محض (١) .

أما اختلاف اللغات فهو عمل صناعى تكيفه حالة الاجتماع كما تكيف سائر الاحوال من العادات وأمثالها ، ولهذا كانت حقيقة معنى اللغة أنها مجموع العادات الخاصة بطائفة من طوائف الاجتماع (٢) .

موقف الرافعى ورأى البحث اللغوى

وماقاله الرافعى يستحق التحقيق ، لانه أساس نظريته فى أسرار النظام اللغوى ، ولابد ان نضعه أمام بحوث علم اللغة ، لنحاول الوصول الى ما نرجوه ..

ويبدو أنه وجد فى نظرية المحاكاة أو التقليد الصوتى من الوجاهة والمناسبة ما جعله يطمئن اليها ويؤكدها فى عدد من المواضع (٣) .

وفى رأيى أنه تأثر بما ذكره ابن جنى فى حديثه عن تلك النظرية معزوا لبعضهم . يقول فى الخصائص (٤) : « وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدوى الريح ، وحنين الرعد وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل » .

وابن جنى يقرر أنه يجوز فى القول على اللغة أن تكون مواضعة ، كما يجوز أن تكون الهاما ، فالامران جائزان فى رأى هذا العالم ، لانه

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٥
(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ — ٥٦
(٣) المصدر نفسه ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨١
(٤) ج ١ ص ٤٦ — ٤٧

يقول (١) : « قد تقدم فى أول الكتاب القول على اللغة أتواضع هى أم الهام ، وحكينا وجوزنا فيها الامرين » • وهذا يدل على أنه قرر الوقف ، وعدم الجزم بأحد الامرين اخيرا ، والفرق كبير بين ما انتهى اليه ، وما قرره الرافعى ، وان ذكرنا أنه تأثر بقول صاحب الخصائص الذى نقلناه ، والذى بين أن اللغة فى مذهب بعضهم تقليد للاصوات •

ولقد سبق المرحوم جورجى زيدان الرافعى فى الاهتمام الكبير بنظرية المحاكاة والفلسفة اللغوية ، فكتابه الفلسفة اللغوية صدر فى بيروت سنة ١٨٨٦م وفيه شرح لمذهب المحاكاة يعبر عن الايمان الشديد بها ، فهو يقرر أن « لغتنا مؤلفة أصلا من اصول محصورة عدا أحادية المقطع معظمها مأخوذ عن محاكاة الاصوات الخارجية ، وبعضها عن الاصوات الطبيعية التى ينطق بها الانسان غريزيا » (٢) • ويرى أن الالفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هى تنوعات لفظ واحد •• والتنوعات قد حصلت بموجب ناموسين عظيمى الاعتبار هما القلب والابدال (٣) • أما الالفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها فيرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية احادية المقطع تحاكى أصواتا طبيعية (٤) • والتقليد هو أساس اللغة ، وأصل نشأتها ومدار ارتقائها (٥) • والكلام فى تاريخ اللغة يقسم الى دورين (١) الدور التقليدى (٢) الدور النطقى (٦) •

ويحاول زيدان بكل ما استطاع أن يدعم نظرية المحاكاة فيقول : (٧) « وقد يعسر التسليم بنشوء اللغة عن الاصوات الطبيعية وحدها لانها لاتكاد تذكر بالنسبة الى ألفاظ اللغة واشتقاقاتها وأنواع تعبيرها مما يعد بمئات الالوف على حين أن الاصوات الطبيعية لاتكاد تزيد على المائة والجواب أن ذلك طبيعى •• يتناول سائر الاجسام الحية وما يتعلق بها فكلها تنمو وترتقى وتتنوع وتتكاثر جريا على ناموس

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ٢٨ .
(٢) جورجى زيدان : الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية — الطبعة الثانية مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٤م ص ١٩
(٣) نفسه ص ٢٠
(٤) نفسه ص ٥٤
(٥) نفسه ص ٧٨
(٦) نفسه ص ٧٨ وانظر التفصيل ص ٧٨ — ٨٥ وما بعدها
(٧) نفسه ص ٨٤

الارتقاء العام .. » ويؤكد هذا الباحث أن اللغة الطبيعية تنوعت تبعا لاحتياجات الانسان بوسائل النمو المختلفة (١) ويشير الى أحوال اللغات ، منتهيا الى أن جملة القول « أن من الامور الراجحة قياسا ، والجلية استقراء أن لغتنا مؤلفة أصلا من أصول قليلة أحادية المقطع ثنائية الاحرف فى الاغلب ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الاصوات الخارجية وبعضها عن المقاطع الطبيعية التى ينطق بها الانسان غريزيا ، وأنه من هذه الاصول القليلة قد نشأت وارتقت بارتقاء أفكار المتكلمين بها ، وتعددت ألفاظها بتعدد احتياجاتهم » (٢) .

وفى كلام الرافعى ما يدل على أنه استفاد مما ذكره جورجى زيدان بعض الامور مثل التنوع بالنحت والابدال والقلب تبعا لاحتياجات الانسان (٣) والامثلة التى ذكرت عن أهل استراليا وغيرهم (٤) والدلالة الحسية والدلالة المعنوية (٥) . ولا نستبعد أن يكون الرجلان قد اطلعا على ما كان متداولا بين علماء الغرب فى زمنهما عن طبيعة اللغة ووظيفتها ، واستفادا الكثير مما كتبه المستشرقون عن اللغة العربية ، وان كان لبعض علمائنا القدماء فضل كبير فى ابراز النظريات (٦) بصورة تدل على السبق وسعة الافق وأيا ما كان الامر فان بعض الباحثين يرى أنه يمكن الاعتماد على نظرية المحاكاة فى فهم الطريقة التى يمكن أن يكون الانسان قد اتبعها فى مبدأ الامر فى وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، وهى التى يصح أن نعتبرها ادنى نظريات البحث فى نشأة اللغة الى الصحة ، وأقربها الى المنطق السليم ، وسنة النشوء والارتقاء فى نشأة اللغات (٧) .

---

(١) نفسه ص ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤

(٢) نفسه ص ٩٧ — ٩٨

(٣) انظر الفلسفة اللغوية ص ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ وتاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٥١ ، ٥٥

(٤) انظر الفلسفة اللغوية ص ٨٥ وتاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٥٢ — ٥٤

(٥) انظر الفلسفة اللغوية ص ٧٥ وتاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٥٤

(٦) انظر الخصائص لابن جنى جـ ٢ ص ١٣٣ وما بعدها وص ١٤٥ وما بعدها و ص ١٥٧ وما بعدها .

(٧) د. على عبد الواحد وافى : علم اللغة — الطبعة الثانية — نشر مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤م ص ٧٨

ولا ريب عندى فى أن ما أتت به هذه النظرية من المناسبة بين الالفاظ والمعانى ــ قد استحوذ على الرافعى • ومن المعــروف أن نظرية المحاكاة انما هى فرض فى كيفية نشأة اللغة فى رأى اصحاب الاصطلاح ، ولكن الرافعى جعلها تهيمن على الدرس اللغوى ، ومدها الى جوانبه بمستوى انفرد به ، ومنهج عبر عن تعمقه ، واجتهاده فى تجلية أسرار اللغة •

ومن غير شك أنه لاحظ أنه من العسير ان تكون المشابهة تامة فى المحاكاة وأن جعل اللغة تخضع للمستويات التى وجدها وارتضاها ــ يدعم نظرية المناسبة ، ويدفعها الى ابراز صور التمدن •

ويمكننا أن ندرك أنه لم يقبل ما ذهب اليه بعضهم من أنه يبدو سخيفا أن يكون الترتيب التاريخى لنشأة الكلمات هو أن تبدأ عن طريق الحيوان الادنى أو غيره • •

ثم يأتى بعده الانسان فيضع لغته عن طريق تقليده (١) له ، لانه ذهب الى أنه لا يبعد أن يكون الوجه المتقبل أن الاصوات الحيوانية هى المثال المحتذى فى لغة الانسان • • ولعله قد فطن الى أن تقليد الانسان للحيوان لا يضيره فى شىء ، فلا يستطيع أحد ان ينكر صورة التقليد فى قصة ابنى آدم • قال تعالى : « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوأة أخيهفأصبح من النادمين (٢) » •

وأمر التقليد للطير فى محاولة الانسان التطور والرقى بالطيران واضح لا يحتاج الى بيان •

وموقف الرافعى يدل على أنه لم يقبل الاعتراض على نظرية المحاكاة بأن اطلاق الاصوات التى لا معنى لها الخاصة ببعض المخلوقات على المخلوقات ، او حركة أصواتها ، أو نتيجة الصوت ــ يجعل الصوت

---

(١) د . ابراهيم انيس دلالة الالفاظ نشر مكتبة الانجلو ــ الطبعة الثانية ١٩٦٣ م . ص ٢١ ــ ٢٢

(٢) المائدة الآية ٣١

الذى لا معنى له فى نشأته ، له معنى حقيقى فى فم المقلد ، وفى عقل من يسمعه . . ولعله تأمل فى لغة الاطفال الصغار ، وتبين له أن لهم طريقة فى خلق كلمات لم تسمع قط من قبل ، وادرك ربطهم بعض المعانى بمجموعة من الاصوات التى لا معنى لها فى الاصل ، ثم انتقل بالاصوات المبهمة بفضل الميزة التى حبا الله بها الانسان دون سائر الحيوانات ، فأصبحت تلك الاصوات دالة على معنى ، هو مصدر الصوت أو ما يتصل به . . يقول الاديب الباحث (١) « منذ خلق الانسان خلقت الاصوات وهى مادة اللغة ، ولكن الطفولة الفردية تدلنا على أن الطفل يبتدىء من أبسط درجات النطق الطبيعى الذى هو محض أصوات مصبوغة بصبغة من الشعور تكون هى حقيقة الدلالة المعنوية فيها فيكون كأنما يلهم المنطق بهذه الاصوات التى هى لغة روحه ثم يدرك معانى تلك الدلالة ، ويميز بين وجوهها المختلفة،ثم ينتهى الى الفهم فيقلدمن حوله فى طريقة البيان عنها بالالفاظ متوسعا فى ذلك على حسب ما يتسع له من معانى الحياة الى أن تنقاد له اللغة التى يحكيها ، ولولا التقليد الذى فطر عليه ما بلغ من ذلك شيئا » .

ويرى بعض الباحثين انه يجب ان يكون فى الحسبان مراعاة عدم وضوح الصوت المحكى ، وأن ما يدرك يختلف فيعبر كل واحد بمقطع أو صوت يحكى ما أدرك فيكون الاختلاف . . والاسماع لا يمكن أن تتفق تمام الاتفاق ، وكذا أدوات الحكى ليست عند الناس سواء ، أما الاجواء المختلفة فلها دخل كبير فى وضوح الصوت أو عدم وضوحه ، والحاكى قد يكون بلسانه بعض عجز كالسمع تماما ، وأسماع الحاكين فى القديم تختلف عن اسماعنا . وكل هذه المباينات تقتضى المباينة فى المسموع ، ومن هنا قد تأتى بعض اسباب اختلاف اللغات فى المسمى الواحد . ولا يجب أن نهمل أن الالفاظ دخلها أنواع من التغيير تعاقبت عليها فى صورها ومعانيها ، وصارت علامات للاشياء أو الصفات من غير مراعاة المناسبة الصوتية (٢) .

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٦

(٢) عبد الله العزازى : فقه اللغة — نشر الجامعة الاسلامية — ليبيا ص ٣١ — ٣٢

وعندما نتناول نظرية المناسبة ، والآراء التى تعرضت لها سندرك أن الرافعى أسرف فى جعل اللغة كلها حكاية للطبيعة ، وان كان له فى ذلك اتساع مبنى على القياس ، وامتداد يستفيد من مستويات المحاكاة ويجعلها ضروبا من القدرة ، وألوانا من التطور ، ووجوها من الفقه فى الدرس اللغوى تفسرها وتقودها • وجهده فى تفسير مذهبه ومساندته بكل ما استطاع قرب تصور نشأة اللغة ، وجعل نظرية المحاكاة أدنى الى طابع اللغويات بصورة تشهد بفضله وبراعته فى هذا المجال • يقول الرجل (١) « وأقرب ما يصح فى الظن مما لايبعد أن يكون الوجه المتقبل ، وان كان الظن لايغنى من الحق شيئا أن الاصوات الحيوية هى المثال المحتذى فى لغة الانسان » ••

والحق أنه وان لم يقدم دليلا يقينيا ، فانه لم يلجأ الى الغموض والابهام الذى وجدناه فى بعض النظريات الاخرى (٢) ولم يسلك مسلك غيره فى الاسراف فى الافتراضات (٣) . ولم يعبأ بالمشكلات والاختلافات التى دعت بعض العلماء الى الانصراف عن البحث فى نشأة اللغة (٤) بل أراد أن يوجه الناس الى ما حققه اجتهاده . وأن يرشدهم الى رفض منطق الاستسلام وان اعترف بأن الفائدة التى تحققت كانت ظنية •• انه بدأ بحثه فى أصل اللغات بتأكيد أن اللغة بنت الاجتماع ، ثم ذكر أنه اذا كان أصول الحياة الاجتماع فمن أصول الاجتماع اللغة ، والذى يذهب اليه العلم حديثا « هو أن اللغة ظاهرة اجتماعية كسائر الظواهر الاجتماعية ، ومعنى هذا أنها من صنع المجتمع الانسانى ، ولايعرف مجتمع انسانى منذ أقدم عصر سجله التاريخ بلا لغة ناضجة التكوين » (٥) •

وهذا يؤيد ما قاله صاحب تاريخ آداب العرب فى أمر اللغة والاجتماع ، وكرره ، ليوجهنا الى أنه هو الذى يعول عليه فى هذا الشأن •

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٤٩
(٢) انظر دلالة الالفاظ : د. ابراهيم انيس ص ٢٥ وعلم اللغة : د. على عبد الواحد وافى ص ٧٤ — ٧٧
(٣) انظر عبد الله العزازى : فقه اللغة ص ٢٨ — ٢٩
(٤) انظر السيوطى : المزهر ج ١ ص ٢٦
(٥) د. محمود السعران — علم اللغة مقدمة للقارىء العر... ص ٢٥

ولامرية فى أن ما صنعه فى الاستفادة من بحوث علماء طبقات الارض ، وما سجله المؤرخون ، وما فعله فى دراساته لعناصر وظواهر من لغات الشعوب المنحطة فى بعض القارات ، وحرصه على مراعاة ملاحظات من أحصوا الاصول الطبيعية الثابتة للمعانى المتفرعة (١) — برهان على أنه بذل الكثير لينفع الدارسين .

واذا ذكروا أنهم يطمئنون الى الطريقة الاستنباطية التى تقوم على الملاحظة والتجارب ، وتأخذ بالاسس العلمية الواضحة ، وتهتم بهذه الامور :

١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الاطفال .
٢ — دراسة اللغة فى الامم البدائية .
٣ — دراسة تاريخية للتطور اللغوى (٢) .

— فنحن نذكر ان نسق الرافعى قدم اشارات هامة ، وبحثه أعطى توجيهات لها قيمتها .. وعند الموازنة نجد بعض الجوانب التى ترفع منزلته وتشهد بأنه لم يكن يغفل عن أهمية دراسة اللغة فى الامم البدائية ، وعن ضرورة الانتباه الى التطور اللغوى ، ولن ننسى له قوله: « اللغة تابعة لاحوال الاجتماع فى البسط والقبض ، وما يتقلب عليه ، ويحدث فيه بحيث لاتخرج عن أن تكون مرآة تظهره كما هو فى نفسه ممها تنوعت أشكاله ، واختلفت أزياؤه » (٣) ، فما قاله لايختلف عما أثبته البحث الحديث وهو أن اللغة « أداة اجتماعية يوجدها المجتمع للرمز الى عناصر معيشته وطرق سلوكه ، ولذا يحدد طرق هذه اللغة واستعمالاتها ويضعها موضع الظاهرة الاجتماعية فيصدق عليها مايصدق على كل ظاهرة اجتماعية أخرى من الخضوع لظروف التعارف وللتصويب والتخطئة بحسب هذا التعارف » (٤) .

---

(١) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥١ — ٥٥
(٢) د. ابراهيم انيس — دلالة الالفاظ ص ٢٧ — ٣٥
(٣) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٥٣
(٤) د. تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها : الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٧٩ ص ٢٨

٢ ــ الرافعى وكمال اللغة

تدعونا نظرية الرافعى التى توجه درسه اللغوى الى الحديث عن كمال اللغة عنده ، فمسألة الكمال تفسر كثيرا من الوجوه ، وتسود الدرس .

ومن الحق أن نقول ان الاديب اسرف فى تعظيم اللغة ، وبلغ فى ذلك مستوى لم يبلغه الذين عرفوا بالمبالغة فى ذلك (١)

ويبدو أن ما وجده فى عصره من بعض مظاهر الاستهانة والسخرية ثم ما لاحظه من محاولة فرض ما ليس من العربية فى شىء ، تمهيدا لاشاعة الزيغ ، وبث الانحراف ــ قد دفعه الى الافراط فى صورة التعظيم التى لم يصل اليها أحد ممن عاصروه أو جاءوا بعده ، ولا غرابة فى ذلك ، فانه كان يشعر بأنه رسول لغوى ، يريد ان « ينفخ فى هذه اللغة روحا من روحه ، يردها الى مكانتها ويرد عنها ، فلا يجترىء عليها مجترىء ، ولاينال منها نائل ، ولا يتندر بها ساخر ، الا انبرى له يبدد أوهامه ، ويكشف عن دخيلته » (٢) .

ومن الواضح ان اسرافه جعلها قريبة من الاعجاز ، عجيبة ، وجعله عندما تحدث عن العمل الهام الذى كان له شأنه الكبير فى تهذيب اللغة ــ العمل الذى تم على يد قريش ــ يهمل أمر الحقائق اللغوية الموضوعية ، وما يحتمه الدرس من الدقة والتحديد . . ان الحقائق المذكورة تتطلب تفسير الاوضاع الخاصة وتجلية الشواهد ، وبيان الاختلاف ، وكشف التغيير كشفا علميا ينفع الدرس ، ويفيد البحث ، ولكن منهج الاسراف يجعل تهذيب قريش من باب الاحداث الكونية ، والخوارق الطبيعية ، ويشيد بأدواره المدهشة . . دون ان يوضح القوانين ، أو يحقق جملة التهذيب وقضاياه .

---

(١) انظر ابن فارس : الصاحبى طبعة ١٩١٠ م المكتبة السلفية ص ١٢ ــ ١٦ ، ٢٣ وابن جنى الخصائص ج ١ ص ٤٧ ود : ابراهيم السامرائى : فقه اللغة المقارن : دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ ص ١٧٤

(٢) محمد سعيد العريان : حياة الرافعى ص ٧١

وهذا يدفع الدارسين الى الدهشة والحيرة ، ويؤدى الى اشياء من الادعاء والتزيد ، والتمسك بأشياء واهية لا يعول عليها فى علم اللغة • وليس من النهج الدقيق ــ النهج الكامل الصحة ــ أن تؤكد المبالغة أن لقريش الفضل فى تحقيق كل معانى الحياة اللغوية فى تعاقب كالسلم المدرجة تنتهى الدرجة الى درجة ، على نمط متساوق من الرقى ، ان لم يكن عجيبا فى تاريخ أمة متحضرة ، فهو عجيب على الخصوص فى تاريخ العرب • • والرجل لا يؤمن بأن خصائص لهجة قريش ليست هى الغالبة على غيرها ، وينسى دور تميم وغيرها (١) •

ويسوق كلامه فى ابهام وغموض ، ولا يبين وجه هذا التعاقب أو سر النمط المتساوق ، ويحرص على التشبث بالافراط فى نسق المثالية الشامل • • فها هو ذا يقول (٢) « وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينة اللهجات ، مختلفة الاقيسة المنطقية المودعة فى غرائزها ، فكان قريش يسمعون لغاتهم ، ويأخذون ما استحسنوه منها ، فيديرون به ألسنتهم ، ويجرون على قياسه ، ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه ، ولكن نوع الحضارة الذى اكتسبوه من تاريخهم ألان طباعهم وكسر من صلابتهم ، فاتفقت فى ذلك حياتهم اللغوية ، وحياتهم الاجتماعية • • فلما اجتمع لهم هذا الامر ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها ، وبذلك مرنوا على الانتقاد حتى رقت أذواقهم ، وسمت طبائعهم ، وقويت سلائقهم ، وحتى صاروا فى آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها ابانة عما فى النفس • • » •

وبعد الحديث عن رحلاتهم وسماعهم وتدبرهم وصنيعهم بألفاظ الامم • • يقول : (٣) « وعلى ذلك صاروا بطبيعة أرضهم فى وسط العرب كأنهم مجمع لغوى يحوط اللغة ، ويقوم عليها ، ويشد أزرها ، ويرفع من شأنها ،ويزيد فى ثروتها ، وبالجملة يحقق فيها كل معانى الحياةاللغوية ولايسع المتأمل فى الادوار التى تعاقبت على قريش فى تهذيبها

(١) انظر د . عبده الراجحى : اللهجات العربية فى القراءات القرآنية دار المعارف ١٩٦٨ ص ٤٩
(٢) الرافعى تاريخ آداب العرب ص ٨٢ ــ ٨٣
(٣) نفس المصدر ص ٨٣ ــ ٨٤

اللغة الا ان يستسلم للدهشة ، ويحار من أمر هذا التعاقب ، فانه كالسلم المدرجة تنتهى الدرجة منها الى درجة ، على نمط متساوق من الرقى ، ان لم يكن عجيبا فى تاريخ أمة متحضرة فهو عجيب على الخصوص فى تاريخ العرب ، ولا سيما اذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة ، وأنها لا تتجاوز مائة سنة قبل الهجرة الى مائة وخمسين على الاكثر فلابد من التسليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعى ظهرت نتيجتها بعد ذلك فى نزول القرآن الكريم بلغة قريش » •

وعندما تحدث ابن فارس فى كتابه الصاحبى فى باب القول فى أفصح العرب (١) ، ذكر أن قريشا أفصح العرب ألسنة ، وبين فضلها وعملها فى التهذيب ، وخلوها من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ ، ولكنه لم يذهب الى الخوارق والادوار المدهشة،وهو الذى يقول ان لغة العرب توقيف ، ويتعصب فى تأكيد ذلك كل التعصب ، ويقرر أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها ، وسائر اللغات قاصرة عن اللسان العربى ، وواقعة دونه • ثم يذكر ان المتكلم بغير العربية اذا أعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ، فان ذلك يعد أحسن مراتب البيان ، وأن من الغلط أن تبين سائر اللغات ابانة اللغة العربية ، ويدعى أن سائر الامم لاتملك براعة الكلام ، ولاتعرف الايماء اللطيف ، والاشارة الدالة كالعرب ، ويذهب الى أن هذه الامم لا يمكن أن تعبر عن الاقوال • • لان ذلك يعرفه العرب وحدهم (٢) •

وهذا تفكير ينأى عن قوانين اللغات ، ويرى أنها ليست من باب الاجتماع اللغوى ، فهى الاعلى والارفع ، و لايمكن ان تضاهى أو تقابل أو يعارض بها كلام •

والبون شاسع بين الرجلين ، لان مسألة الخوارق والاحداث الكونية تحسم الامر ، وتدل على أن صاحب تاريخ آداب العرب ، أسرف كثيرا • • انه آثر الاستسلام للدهشة والحيرة ، ومستويات المنهج العلمى لا ترضى عن ذلك ، ولا تحب أن يكون الدرس اللغوى

---

(١) ص ٢٣
(٢) ابن فارس — الصاحبى — ص ١٢ — ١٦

دعوى الى تقديس العجيب ، والخضوع لما يفرضه من غموض وخفاء •• ويشير بعض من ترجموا له الى انه كان ولوعا بأن يضيف الى كل شيء شيئا من عنده ، وتلك كانت طبيعته (١) •• وأرى أن مجال الحقائق اللغوية تكره الشطط والنأى عن الحق ، والتسليم بالخوارق والحوادث الكونية فى أمر اللغة •

واللغة من النظم الآدمية التجمعية ، ليست صناعة أفراد بعينهم ومعنى هذا انها لا تقوم على ما ذكره من الخوارق ، وانما شأنها شأن الظواهر الاجتماعية ، تلك التى تحقق فيها خصائص مطردة لا تتخلف ، وطبائع مشتركة لاتشذ عنها أى واحدة من تلك الظواهر الجماعية ، والنظم الاجتماعية •

واللغة من النظم الآدمية التجمعية ، ليست صناعة أفراد بعينهم ولا عمل جيل بذاته ، ولا يستطيع قوم مجتمعون أن يقدموا من امرها شيئا أو يؤخروه •• فلا هم يتدخلون تدخلا ارادیا فى وجودها ، ولا هم يسهمون فى تنظيمها ، ولا هم يختطون طريقها •• ولن يغيروا ابدا من واقع تحتمه القوانين الاجتماعية الثابتة المطردة • (٢)

« ان سنن الحياة وفيها حياة اللغة — حقائق لا طفرة فيها ، ولا خوارق •• وليس يصح حكم على شيء فيها الا بعد بحث ، وبحث يتعرف القوانين ، ويتبين النواميس •• وقد عرف الكثير من حياة الكائنات الاخرى » (٣) •

ان دعوة الاستسلام هذه لا يمكن قبولها ، فالامر أمر دراسة التطور ، تطور اللاغى نفسه ، وتطور اللغة ، ودراسة أثر البيئة الطبيعية المادية التى تعيش فيها اللغة ، ودراسة الظروف النفسية العاطفية والعقلية لمتكلمى اللغة ، ومعرفة أنماط الحياة التى يحياها متكلمو اللغة ، وادراك اثر التوارث ، وفعل الصراع ، وما تثبته المقارنات

---

(١) محمد سعيد العريان — حياة الرافعى ص ١٣٠
(٢) أمين الخولى — مشكلات حياتنا اللغوية ص ٤٣ — ٤٤ وانظر اللغة والمجتمع لعلى عبد الواحد وافى ص ٩١ طبعة الحلبى
(٣) نفس المرجع ص ٦٠

والمقابلات اللغوية (١) ، ثم استخدام أرقى ما وصل اليه التحقيق ..

وكيف يطلب الاستسلام ، وهو يكتفى بأن لغة قريش ارتفعت عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها . . وأنهم اجود العرب انتقاء للافصح من الالفاظ ، واسهلها ، واحسنها ، وابينها ، مما لا يعطى الصورة الدقيقة لفهم التهذيب ومداه ، فهناك حقائق متفرقة فى انحاء شتى لا يصح البحث الا بارتيادها كلها ، والاكتفاء بجانب منها . . لا يفى بحق البحث ولا تكون نتائجه كاملة الصحة .

واللغة عند الرافعى عجيبة « يزيد فى العجب منها أنها لغة تلك العقول الفطرية ، والفطرة وان كانت دائما تختص بمسحة آلهية ، الا أنها أصل الكمال فى النفس لا نفس الكمال » (٢) .

ويدفعه الاسراف الى اعطاء اللغة اعتبارات لا ريب فى بعدها عن النسق المفروض فى تناولها ودراستها ، ان هذه الاعتبارات تفيض بالمستوى الاسمى ، والقضاء بأنها العامل الاجتماعى الاوحد فى نهضة العرب الاسلامية ، والحكم بأنها هى سبب انتظام امر العرب ، فهو يقرر أن اللغة وصلت مستوى انتهى الى الكمال ،وامتازت بالاحكام على سنن فيها المعنى الالهى ، الذى لا دليل عليه الا شعور النفس ، والنفس هى البقية السماوية فى الانسان . ويذكر أن تلك السنن « خرجت بها اللغة كأنها عقل حتى تتلامح فى جهات الحكمة خطراته ، وتتراسل من أعين الوحى نظراته ، بل كأنها معنى آلهى مبتكر ، ألقى فى هذه الطبيعة ، فيتحول به وجه العالم الى جهة الله ، فمازال يتكشف من أطرافه شيئا فشيئا حتى ظهر ابتداعه فى القرآن الكريم ، فاتضح عن روعة تملك على الانسان مذاهب حسه ، وتنساب فى قلبه ، لتتصل بالروح الآلهى من نفسه (٣) .

ويؤكد الكاتب أن العرب قوم رحل ، وقد اختلطوا بأمم كثيرة فلابد أن يكون هذا الاختلاط بينا فى تكوين لغتهم ، وتلك سنة عامة فى

---

(١) نفس المرجع ص ٦١ — ٦٢
(٢) مصطفى صادق الرافعى — تاريخ آداب العرب ص ١٧٤
(٣) الرافعى — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢١٣

اللغات (١) تضع بعض هذا الى جوار بعض ، فتجد البعد شاسعا بين الاتجاهين • وهو يشير بذلك الى انفراد العربية بما يعزلها عن لغات الدنيا ، ويرفعها عن سنن الكون اللغوية ، ونواميس الحياة اللسانية — فالامر عنده أمر الانفراد الحيوى ، والخوارق الطبيعية ••

ويزداد الغلو والشطط عندما يرى أنه تبعت الحياة اللغة ، ولم تتبع اللغة الحياة ، وكل فضل فى الرقى والاستقامة يرجع اليها وحدها • ثم يصل الامر الى الاعجاز فيقول (٢) ، « •• وهذه اللغة يوشك أن يكون أمرها معجزا على ما رأيت ، بحيث لا يغلو فى رأينا من يقول انها بسبيل من الاوضاع الالهية فى التوفيق والالهام ، لان أثر ذلك قد ظهر فى القرآن » ، كما يقول (٣) : « •• ويندر أن تجد ذلك كله — طرق الوضع — فى لغة من اللغات على مقدار ما تجده فى العربية ، فلا جرم كانت حرية بأن تكون مناط الاعجاز ، لانها الخلقة اللغوية المكاملة » •

ومن الغريب انه يعترف بأن كثيرا من اسرار الوضع لم يكشف ، وأنها تحتاج الى من يتتبع ألفاظها ، ويتدبر وجوه اشتقاقها ، ويتفقد مواقع كلام العرب ، ورتب صيغها واوزانها على ما تقتضيه اغراضها ، بحيث يستقر كل مثال منها فى نصابه ، ويرد الى حيزه ، لينتهى الامر بعلم يكشف عن كثير من أسرار الوضع (٤) • ويبدو أن نظرته العاطفية التى ترى فى اللغة مالا يراه غيره ، من جلال الاعتباراب الدينية ، وسمو المعانى الالهية — لم تقدر ما يقتضيه قوله بأن التوقيف فى اللغة انما هو من باب التقوى التاريخية لا اكثر • • وقوله بأن اللغة بنت الاجتماع ، والعرب قوم رحل قد اختلطوا بأمم كثيرة ، فلابد أن يكون هذا الاختلاط بينا فى تكوين لغتهم ، وتلك سنة عامة فى اللغات ، فتلك الآراء تخالف ما ذكره من أمر الاعجاز • • وما جاء به نتيجة الغلو والاسراف ، ولو راعى الرافعى ما ذكره بالنسبة للتوقيف ، وما قرره من أن اللغة بنت الاجتماع — لما اندفع الى مسألة الاعجاز والخوارق

(١) المصدر نفسه ص ٦٩
(٢) المصدر ذاته ص ١٧٤
(٣) المصدر ذاته ص ١٦٧ — ١٦٨
(٤) المصدر ذاته ١٧٤

والاحداث ، ومن شأن الباحث أن يلتزم بمستوى ما قاله ، ويحرص على عدم الخروج على النسق الذى ارتضاه بشىء له تأثيره فى جلب التناقض أو احداث التباين والتردد والاخ تلاف •

« واللغوى الحديث لا يحاول تفضيل لغة على أخرى ، بل يعجب بكل لغة ، ولا ينظر الى ما اتصفت به الا على أنه خصائص لهذه اللغة عليه أن يدرسها ، وأن يبحث عن سرها » (١) وأعتقـد أن نظرية المناسبة التى تسيطر على درسه فى اسرار تمدن النظام اللغوى هى التى جعلته يتمسك بأن العربية فريدة ، ترفعها هذه النظرية عن السنن اللغوية ، ونواميس الحياة اللسانية ، حيث رأى فيها أمورا قادته الى تمجيد خوارقها ، وميزاتها ، وطرازها العجيب لديه ، فهى شىء آخر فى كمالها وفضلها • ولعله قرأ ما قاله ابن فارس وابن جنى وغيرهما من الذين يسرفون فى تعظيم هذه اللغة ، ووجد أنه لا يفى بحق العربية فى التعظيم على الرغم مما وصل اليه فى اغداق نعوت الجلال والحكمة ، وقد أشرنا الى موقف من مواقف ابن فارس فى تعظيمها ، ونأتى هنا ببعض مما قاله ابن جنى لان الرافعى تأثر به ، وعول عليه فى كثير مما جاء به فى اسرار النظام اللغوى •

يقول هذا العالم فى باب فى أن العرب قد أرادت من العـلل والاغراض ما نسبناه اليها ، وحملناه عليها (٢) : « • • لان الله سبحانه انما هداهم لذلك ووقفهم عليه ، لان فى طباعهم قبولا له ، وانطواء على صحة الوضع فيه ، لانهم مع ما قدمناه من ذكر كونهم عليه فى أول الكتاب من لطف الحس وصفائه ، ونصاعة جوهر الفكر ونقائه ، لم يؤتوا هذه اللغة الشريفة المنقادة الكريمة ، الا ونفوسهم قابلة لها ، محسة لقوة الصنعة فيها ، معترفة بقدر النعمة عليهم بما وهب لهم منها •• » ويقول فى نفس الباب (٣) : « هذا كله ، وما أكنى عنه من مثله ـ تحاميا للاطالة به ـ ان كانت هذه اللغة شيئا خوطبوا به واخذوا باستعماله • وان كـانت شيئا اصطلحوا عليه ، وترافدوا

(١) د : ابراهيم انيس دلالة الالفاظ ص ٢١١ وانظر : د : تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٩٣
(٢) ابن جنى الخصائص ج ١ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥

بخواطرهم ومواد حكمهم على عمله وترتيبه ، وقسمة انحائه ، وتقديمهم اصوله ، واتباعهم اياها فروعه — وكذا ينبغى أن يعتقد ذلك منهم ، لما نذكره آنفا — فهو مفخر لهم ، ومعلم من معالم السداد ، دل على فضيلتهم » .

وانظر الى تلك النعوت التى تومىء الى منزلة اللغة لدى ابن جنى فى قوله (١) « واعلم فيما بعد أننى على تقادم الوقت ، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى ، مختلفة جهات التغول على فكرى . وذلك اننى اذا تأملت حال هـذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحـكمة والدقة ، والارهاف ، والرقة وما يملك على جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » .

ولا جدال فى انك ستدرك أن الرافعى جاوز كل المسـتويات عندما توازن بينه وبين أبرز الذين اعتصموا بكمال اللغة ، وفضلوها فى زهو كبير بميزاتها لقد اتجه أبو حاتم الرازى فى كتاب الزينة أيضا الى رفع لغة العرب الى أعلى منزلة فعقد فصلا فى (فضل لغة العرب) ذهب فيه الى أن العربية أفصح اللغات وأكملها ، وأتمها ، وأعذبها ، وأبينها . . الخ . وسعى الى تأكيد فكرة التفوق والسمو ، وجعلها من نصيب العرب وحدهم ، فقد جاء فى هذا الفصل : « وقال قوم بفضل اللغة اليونانية والهندية ، لان كتب الفلاسفة والاطباء وأصحاب النجوم والهندسة والحساب بها ، وهذا قول منبوذ عند أهل الملل » (٢) .

والرافعى لم يقف عند هذا الحد الذى بلغه أبو حاتم ، بل تشبث بأعلى ضروب المبالغة ، وأراد أن ينفرد بمستوى يشير اليه وحده فى قدر التفضيل والتعظيم والكمال .

وفات الرافعى وغيره أنه لا معنى لهذا التفضيل المسرف ، وأنه لم يجىء نص فى تفضيل لغة على لغة ، وقد قال تعالى : « وما أرسلنا من

---

(١) المصدر ذاته ص ٤٧
(٢) أبو حاتم : الزينة ج ١ ص ٦٠ — ٦٣

رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » • وقال تعالى : « فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ، فاخبر عز وجل أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب الا ليفهم ذلك قومه صلى الله عليه وسلم ، لا لغير ذلك ، وعلى أساس لغوى علمى صحيح قضى على ما قاله جالينوس ، وهو أن لغة اليونانيين أفضل اللغات لان سائر اللغات انما هى تشبه اما نباح الكلاب واما نقيق الضفادع — بأنه غلط وجهل شديد ، لان كل سامع لغة ليست لغته ، ولا يفهمها ، فهى عنده فى النصاب الذى ذكر جالينوس ولا فرق (١) •

ويمكن مواجهة كل من يلوذ بالتفضيل المسرف ، وابطال ما يستند اليه • يقول ابن حزم (٢) : « وحروف الهجاء واحدة بلا تفاضل بينها ، ولا قبح ، ولا حسن فى بعضها دون بعض ، وهى تلك بأعيانها فى كل لغة ، فبطلب هذه الدعاوى الزائفة الهجينة ، وبالله التوفيق • وقد أدى هذا الوسواس العامى اليهود الى أن استجازوا الكذب ، والحلف على الباطل بغير العبرانية وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الاعمال لايفهمون الا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها ، وفى هذا من السخف ما ترى •• وعالم الخفيات وما فى الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه •• عز وجل » أما من يقولون أن العربية أفضل اللغات لانه نزل بها كلام الله تعالى فان هذا العالم يقول لهم انه لامعنى لذلك (٣) ، « لان الله عز وجل قد أخبرنا انه لم يرسل رسولا الا بلسان قومه • وقال تعالى : « وان من أمة الا خلا فيها نذير » ، وقال تعالى : « وانه لفى زبر الاولين » ، فبكل لغة قد نزل كلام الله ووحيه ، وقد أنزل التوراة ، والانجيل ، والزبور . وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية ، وأنزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية ، فتساوت اللغات فى هذا تساويا واحدا •• وأما لغة أهل الجنة ، وأهل النار فلا علم عندنا الا ما جاء النص والاجماع فى ذلك » (٤) •

---

(١) ابن حزم الاحكام فى اصول الاحكام طبعة الخانجى ج ١ ص ٣٣
(٢) المصدر السابق ص ٥٣
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤
(٤) المصدر نفسه ص ٣٤

وما قاله ابن حزم يؤيده الدرس اللغوى الحديث يقول سابير (١) « لا معنى لان نقول أن هناك لغة ــ مهما تكن ــ أكثر فصاحة أو أكثر ارتباطا من لغة اخرى قد تكون أكثر تعقيدا أو اكثر صعوبة » •

وقد أشرنا من قبل الى أن اللغوى الحديث لايحاول تفضيل لغة على أخرى ويذكر بعض الباحثين فى اللغة أنه من المسائل التى نحاها علم اللغة الحديث فى التفضيل (٢) • والواقع أن الاسراف الذى وجدناه كان له أثر كبير فى بعض وجوه أسرار النظام اللغوى ولذا عنينا به • وما نريد أن نؤكده أنه لاينبغى أن يغيب عنا أن اللغات تتفاوت فى أنماط نشأتها وتطورها ، ولكل لغة أسلوب خاص فى تأليف الالفاظ والتراكيب ، والمألوف فى لغة ما قد يكون مستهجنا فى غيرها ، يدل على ذلك أن طائفة من الاصوات تجتمع وتتناسق فى ألفاظ بعض اللغات على حين تأبى التجمع والتناسق فى ألفاظ لغات أخرى وبعض علمائنا قد أدرك الفروق الدقيقة بين اللغات المختلفة ووجه الانظار الى ما يعد من كلام العرب ، وما يرى أنه ليس من كلامهم وهذه نظرة لها اهميتها فى مسألة التفضيل ترفض ما يقوله الغلو ، أو ما يقرره الاسراف (٣) •

---

(١) Sapir (Edward) : Culture, Language and Personality Califorina 1960 P. 6

(٢) د. محمود السعران : علم اللغة : مقدمة للقارىء العربى ص ٣٧٩

(٣) ابن دريد : الجمهرة المقدمة ص ٦